الباب الثالث

اللغة العربية

مدخل

تعد اللغة العربية من اللغات القديمة التي اختلف العلماء في طبيعتها ومنشئها، فبعضهم يرى أنها أم اللغات السامية، وبعضهم يرى أنها متطورة عنها. وزاد الأمر تعقيداً العلاقة الجغرافية بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، مما أوجد لغتين: عربية جنوبية وعربية شمالية، ولا يرى العلماء المسلمون فرقاً بينهما، وإن كان علم اللغة الحديث يفرّق بين السبئية والحميرية. والثابت أن عرب الجنوب وعرب الشمال كانوا على اتصال لغوي مستمر. وجاء الإسلام، فأكد وحدة الأرومتين، وكان القرآن الكريم شاهداً على استعمال اللغة العربية الفصحى، وأهم ظاهرة فيها هي: الإعراب، وهي الظاهرة التي استمرت حتى زمن لاحق، وإن كان هذا لا يرفض وجود لهجات، أو التكيف مع الإعراب نفسه.

الفصل الأول

الفصحى واللهجات القديمة

المراحل الأولى

عندما يريد المرء مناقشة نشأة اللغة العربية، تستوقفه عدة أسئلة، عليه أن يتعامل معها، ويعالجها بقدر ما تسعفه المعطيات. فمن هذه الأسئلة: أننا **عرفنا اللغة العربية تامة المعنى والمبنى في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أي منذ القرن الخامس الميلادي تقريباً، فكيف وصلت إلى الكمال، مع ما تقتضيه أية لغة من تطور وارتقاء؟**

ولعل الفرضية الأولى للإجابة على هذا، هي أن الجماعة السَّامِيّة ربما عاشت في شمال الجزيرة العربية، وبادية الشام والعراق. ثم اتجهت في موجات بشرية، وفي أحقاب تاريخية متعاقبة، إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام واليمن والحبشة، حيث تكوّنت هذه اللغة في هذه المناطق السامية المختلفة. ومن هنا وجدنا قدراً كبيراً من الألفاظ الزراعية والرعوية المشتركة بينها[1]. ومما يدعم ذلك أن اشتراك اللغات السامية في ألفاظ معينة، سيّما ما نجده بين اللغة العربية

---

(١) حجازي، أسس علم اللغة العربية، ص١٥٣. وانظر:

برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص١٤٢. وانظر كذلك:

corriente, «From Old Arabic to Classical...» Journal of Semitic Studies v. 21.

حيث يفرق بين نوعين من العربية: عربية قديمة، تطورت عنها اللهجات المعاصرة، ولغة عربية فصحى قديمة.

الفصحى واللغة الأكدية، لأحد الأدلة على قدم هذه الألفاظ ومجيئها من لغة سامية أولى، قبل أن تبدأ الهجرات إلى تلك المناطق المختلفة، أي إن هذه الألفاظ ترجع إلى ما قبل سنة ٢٥٠٠ق.م[١].

ومن ناحية أخرى، فإن الألفاظ التي نجدها في الشعر الجاهلي، أو القرآن الكريم، أو المعاجم العربية، ولا نجد نظيراً اشتقاقياً لها في اللغات السامية القديمة، هي ألفاظ دخلت اللغة العربية، أو كونتها اللغة العربية فيما بين الهجرات المختلفة حتى المدة المتأخرة من تاريخ الشعر الجاهلي، أو نزول القرآن الكريم، مما أدى إلى ابتعاد اللغة العربية الفصحى عن أخواتها الساميات، نتيجة لاتساع مجالاتها الثقافية والتاريخية والاجتماعية. ومن المؤكد أن الحركات الإعرابية قديمة، بدليل احتفاظ اللغة الأكدية ببعضها، ولعلها كانت موجودة في اللغات السامية الأخرى في مراحلها، ثم زالت منها تدريجياً، كما هو الحال في اللغة النبطية قبيل الميلاد.

علاقتها باليمنية

العربية العاربة

يمثل وجهة النظر العربية القديمة، وهي وجهة النظر الشائعة بين العرب، عن أصل اللغة العربية، قول ابن النديم:

«فأما الذي يقارب الحق، وتكاد النفس تقبله، فذكر الثقة، أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وإرم وجويل، فهؤلاء هم العرب العاربة. وأن إسماعيل لما حصل في الحرم، نشأ وكبر، تزوج في جرهم إلى معاوية بن مضاض الجرهمي، فهم أخوال ولده، فعلم كلامهم. لم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه

---

(١) فهمي، أسس علم اللغة، ص٢١٧.

من بعض، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها، فلما اتسع الكلام، ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية، وكثر هذا بعد معد بن عدنان. ولكل قبيلة من قبائل العرب لغة تنفرد بها، ويؤخذ عنها، وقد اشتركوا في الأصل»[1].

ولقد ظل الاعتقاد بعربية اليمن ثابتاً، يقول عقال بن هاشم:

لَئِنْ كَانَ فِي قَيسٍ وخِندِفَ أَلْسُنٌ طِوَالٌ وَشِعْرٌ سَائِرٌ لَيسَ يُقْدَحُ
لَقَدْ خَرَقَ الحَيُّ اليَمانُون قَبْلَهُمْ بُحُورَ الكلام يَسْتَقَى وَهيَ تَطْفَحُ
وَهُمْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُم فَتَعَلَّمُوا وَهُمْ أَعْرَبوا هَذَا الكَلَامَ وَأَوْضَحُوا[2]

الاعتراض على هذا الرأي

ولكن، رغم ما هو شائع تراثياً وشعبياً عن نشأة اللغة العربية الفصحى من اللغة العربية الجنوبية «العرب العاربة»، فإن عيسى بن عمر قال:

«ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»[3].

وقال ابن جني: **«لسنا نشك في بُعْد لغة حمير ونحوها من لغة ابني نزار»**[4].

وقد أثبتت النقوش بالخط المسند أن اللغة المكتوبة فيها، هي غير اللغة العربية الفصحى التي نحن بصددها، وذهب الباحثون إلى أن هذه اللغة العربية الجنوبية لغة اليمن في الزمن القديم. ولكن أحد الدارسين المعاصرين يقول: «إن لغة النقوش اليمنية (المسند) إنما هي لهجات عربية، وليست لغة أو لغات مستقلة مهما اختلفت مفرداتها أو

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٨.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، حـ٢، ص٢٧٢.
(٣) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص١١.
(٤) ابن جني، الخصائص، جـ١، ص٣٨٦.

كانت غير معروفة أو غير شائعة في اللغة الشمالية»[1]، وهو يقول: «كانت هناك خلافات بين لهجات القبائل العربية قاطبة حتى بين اللهجات الشمالية نفسها[2]. هذا من حيث الألفاظ، أما من حيث الحركات فهو يرجع خلو اليمنية الجنوبية منها إلى التطور اللهجي والبعد المكاني[3].

وتم التأكد حديثاً من أن اللهجات المهرية والسقطرية والشحرية قريبة الشبه في قواعدها بالقواعد التي اتبعت في النصوص اليمنية القديمة المحفوظة في المساند، مع وجود فوارق كبيرة في مفرداتها عن المفردات العربية[4]. كما يجب التنبه إلى التأكيد على أن الحميرية ظلت لغة حية حتى فترة متأخرة، فهذا الهمداني، أحد رجالات القرن الرابع الهجري (ت٣٣٤هـ)، يعدد جماعات يمنية احتفظت بآثار للحميرية، فيقول مثلاً:

«سرو حمير... **ليسوا** بفصحاء وفي كلامهم شيء من

---

(١) بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص١٩٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه ص١٩٥.

(٤) المرجع نفسه. وانظر «قريباً من هذا الرأي فرضية يوسف اليوسف، في كتابه، مقالات في الشعر الجاهلي»، الذي يقول: «إن لغة اليمن الشعبية، هي لغة الشمال نفسها، وإن الحميرية لم تكن إلا لغة الارستقراطية والثقافة»، ص ص٩٩ ـ ١٠٢. وانظر كذلك:

Beetson, Lanquage of Pre - Islamic Arabic, Arabica, PP, 180-181, 185.

وينقل غريغورس بولس بهنام عن الأبراشي رأيه في: «أن اللغة العربية نشأت من الأرامية في الشمال والسبئية في الجنوب، إلا أن أرامية الشمال تغلبت على السبئية في القرون القريبة من الإسلام».

العلاقات الجوهرية، مجلة المجمع العربي، دمشق، حـ١ م٣٤، ١٩٥٩، ص٤١٥.

التحمير»[1]، ثم يقول عن لهجة السكاسك أن فيهم «**عسرة من اللسان الحميري**»[2]، ويؤكد عدم الإبانة فيما بين قتاب إلى ذمار، فيقول: إن فيهم «**الحميرية القحة المتعقدة**»[3]؛ ويتضح أنه يقصد بعدم الفصاحة ما يشبه الرطانة، فيؤكد أن القبائل الحضورية التي تسكن بعض المناطق اليمنية فيها خليط **متوسط بين الفصاحة واللكنة**، بل يقول: «**إن تلك القبائل أدخل في الحميرية المتعقدة**»[4]. كما يقول: إن بعض المناطق اليمنية من خيوان إلى صعدة «**فيهم حميرية كثيرة**»[5]، بل يقول عن صنعاء العاصمة «في أهلها **نبت** من كلام حمير»[6]، وقد سبق له أن قال عن مهرة: «غتم **يشاكلون** العجم»[7].

ويمكن أن نستدل على الفرق بين اللغة العربية الفصحى واللغة الجنوبية، بما جاء في أحد النقوش باللغة الحميرية: يقول النقش:

(١) أوسلت/ رفشن/ ويرم ايمن/ وبنيهو حيو/ عشتر/ يضع/ بنو همدن/ أقول/ شعبن/ سمعي/ شلثن/ ذخشدم/ هقنبو/ المقه/ ثهون/ بعل/ أوم/ ذن/ صلمن/ حجن/ وقههو/ بمسألهم/ لوفي/ يرم/ بن/ همدن/ ولسعدهمو/ المقه/ بعل/ أوم/ حظي/ ورضو/ مرأهمو/ وترم/ يهأمن/ ملك/ سبأ/ وذريدن/ بن/ الشرح/ يحضب/ ملك/ سبأ/ وذريدن/ ولسعدهمو/ أولدم/ اذكروم/ هنأم/.

(٢) ولسعد/ أوسلت/ وبني همدن/ نعمتم/ ووفيم/ واثمر/

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٢٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٩.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

وافقل/ صدقم/ عدي/ ارضهمو/ واسررهمو/ ولذت/ نعمت/ وتنعمن/ لبني/ همدن/ وشعهمو/ حشدم/ ولحزينهمو/ بن نضع/ وشعي/ شأم/ بعشتر/ وهبس/ والمقه/ وبذت/ حميم/ وبذت/ بعدنم/ وبشمس/ ملكن/ تنوف/ ولشيمهمو/ تالب/ ريم/ ورندو/ هفينتهمو/ المقه/ بعل/ أوم/[1].

اللغة الجَبَّالية المعاصرة في ظفار

رغم هذا، فإنه من حسن الحظ أننا ما زلنا نعايش بقايا اللهجات الحميرية، ففي منطقة ظفار، التابعة إلى سلطنة عمان، لهجة معروفة الآن باللغة الجَبَالية، نسبة إلى سكان جبال ظفار، وقد قمت بزيارة خاصة إلى هذه المنطقة، واستمعت إلى أبنائها، فلم أستطع فهمها، أو تصور ارتباطها باللغة العربية الفصحى، أو حتى بأية لهجة عربية معاصرة، إذ تشكل هذه اللغة الجبالية، لغة قائمة بنفسها، رغم أن سكان ظفار يتمسكون بانتمائهم إلى القبائل العربية، بل إن منهم من ينتسب إلى بني هاشم خاصة، وهم يعرفون بـ«السادة»، ويتجمعون تقريباً في مدينة مرباط، ثم هم يكتبون لغتهم بالخط العربي. وقد سألت عن ذلك الجمع بين حديثهم بلهجة عربية واضحة الآن، وتلك اللغة الجبالية، فكانت الإجابة أن كثيراً منهم لم يكن يعرف اللغة العربية أصلاً، وإنما تعلمها من بعضهم في حداثة سنه، أو في سنّ متأخرة، وقالوا:

---

(١) بافقيه، تاريخ اليمن، ص٦٨.

وجاء في الدليل السياحي لمحافظة ظفار:

«سمهرم... المدينة التاريخية... ولمدينة سمهرم آثار باقية إلى يومنا هذا منها النقوش الحميرية بالخط المسند... في القرن الأول ق.م.» ص ص١٥ ـ ١٦.

وجاء عن السكان:

«يتحدث سكان ظفار اللغة العربية إلى جانب اللهجة الجَبَّالية وهي من بقايا الحميرية القديمة». ص١٨.

إنهم لا يجدون أدنى صعوبة في تعلم اللغة العربية الفصحى، أو التحدث بها. وقد لاحظت أن بعض كبار السن منهم، لا سيما النساء، لا يعرفون من «اللهجة» العربية شيئاً.

ويؤكد هذا، الرواية التي تقول:

«دخل رجل من العرب على ملك حمير وهو على سطح: فقال له: ثب! فوثب الرجل فتكسّر. و(ثب) بلغة حمير: اقعد، فقال الملك للرجل: من دخل ظَفارِ حَمْرا! أي: من دخل ظفار، تكلم بكلام حمير»[1].

والظاهر أن الملك الحميري، لم يستخدم فعل الأمر (ثِبْ)، وإنما استعمل فعل أمر بلغة حمير، دلت عليه إشارة ما من يد الملك، ففي اللغة الجبّالية المعاصرة، هناك مفردتان لهذا الفعل:

الأولى: **كْمَاسْ، قْهِزْ**: أي اقفز.

الثانية: **كْرَا**: وهو القفز مع الجري.

وواضح أنه لا صلة لهذين الفعلين بالفعل في اللغة العربية، فالجباليون لا يعرفون (ثب) بمعنى: اقعد، وإنما يعرفون: سْكافْ.

ولكن هذا لا يعني أن اللغة الجبالية خالية من المفردات العربية، إذ إنها تستخدم شيئاً كثيراً منها، فمن ذلك:

العربية	الجبالية
ملك	حُكُم
إبل	يَلْ
حمار	قِرَح (وفي الشعر القديم يصفون

(١) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص٥٠١.

الحمار بأنه: قارح)

عين	**عين**
ماء	**مِهْ**
تيس	**تُشْ**
قرية أو حارة	**حَلَّات** (وفي اللغة العربية: الحلة)

أما ما يغاير اللغة العربية، فمن ذلك:

رجل	**غيج** Ghaij
بقر	**لْهوْتي**
يمشي	**دِبْغاتْه**
يأكل	دتي Dtai
جذع	**رَشْنُوت**

ويدل على اختلاف مسمياتها عن مسميات اللغة العربية، أسماء بعض مواقعهم، ومنها:

توسنات ـ عيدم ـ غدون ـ ربكوت ـ حنفيت ـ جديزت ـ ضلكوت ـ شيحيت ـ جبجات ـ بربزوم... إلخ.

استعمال اليمنيين اللغة العربية الفصحى للحالات الرسمية

دلائل هذا الاستخدام

أما فيما يخص التخاطب الرسمي، فيمكن أن نستدل ببعض الإشارات على أن عرب الجنوب، كانوا يتفاهمون باللغة العربية الفصحى مع أخوتهم عرب الشمال، فمن هذه الإشارات:

أن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، وفد على سيف بن

ذي يزن في وجوه قريش وقبائل العرب، لتهنئته بانتصاره على الأحباش، ودار بينهما حديث طويل، وقد مدحه أمية بن عبد شمس، فقال:

جَلَبْنَا الْمَدْحَ تَحْمِلُهُ الْمَطَايَا إِلَى أَكْوَارِ أَجْمَالٍ وَنُوقِ
مُغَلْغَلَةً مَرَابِقُهَا تُعَالَى إِلَى صَنْعَاءَ مِنْ فَجٍّ عَمِيقِ
تَؤُمُّ بِنَا ابْنَ ذِي يَزَنٍ وَتَفْرِي ذَوَاتُ بُطُونِهَا أُمَّ الطَّرِيقِ[1]

كما قال أمية بن أبي الصلت:

لاَ يَطْلُبُ الثَّأْرَ إِلاَّ كَابْنِ ذِي يَزَنٍ فِي الْبَحْرِ خَيْمَ لِلأَعْدَاءِ أَخْوَالاَ

حتى قال:

فَاشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعًا فِي دَارِ غُمْدَانَ دَارٍ مِنْكَ مِخْلاَلاَ
قَصْرٍ بَنَاهُ أَبُوكَ الْقَيْلُ ذِي يَزَنٍ فَهَلْ تَرَى أَحَداً نَالَ الَّذِي نَالاَ[2]

ومن ذلك ما جاء في قول الأعشى:

وَقَدْ طُفْتُ لِلْمَالِ آفَاقَهُ عُمَانَ فَحِمْصَ فَأُورِيشَلِيمْ
أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّبِيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمْ
فَنَجْرَانَ فَالسَّرْوَ مِنْ حِمْيَرٍ فَأَيُّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أَرُمْ
وَمِنْ بَعْدِ ذَاكَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ فَأَوْفَيْتُ هَمِّي وَحِينًا أَهُمّ[3]

كما قال يمدح سلامة ذا فائش الحميري بقصيدته:

أَجِدَّكَ لَمْ تَغْتَمِضْ لَيْلَةً فَتَرْقُدَهَا مَعَ رُقَّادِهَا

---

(١) الحميري، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ص١٥٢ ـ ١٥٥. الأكوار: جمع كور: وهو الرحل. ويبدو أن الرواية الصحيحة: على أكوار.
(٢) المصدر نفسه، ص ص١٥٥ ـ ١٥٦.
(٣) ديوانه، ص٤١.

ويقول فيها:

فَإِنْ حِمْيَرٌ أَصْلَحَتْ أَمْرَهَا وَمَلَّتْ تَسَافِيَ أَوْلاَدَهَا
وُجِدْتَ إِذَا اصْطَلَحُوا خَيْرَهُمْ وَزَنْدَكَ أَثْقَبَ أَزْنَادِهَا
وَإِنْ حَرْبُهُمْ أُوقِدَتْ بَيْنَهُمْ فَحَرَّتْ لَهُمْ بَعْدَ إِبْرَادِهَا[1]

ومن ذلك مدح سلامة بن جندل التميمي في شعر له طويل، فهدا، الملك، بنَ عبد كلال، يقول فيه:

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهُمُ فَهْدُ وَعَبْدُ كَلاَلٍ خَيْرُ سَائِرِهُمْ بَعْدُ[2]

وفيه يقول عمرو بن معد يكرب:

أَلاَ عَتَبَتْ عَلَيَّ الْيَوْمَ عِرْسِي لِإِتْيَانِهَا كَمَا زَعَمَتْ بِفَهْدِ[3]

ويقول ابن مقبل، الشاعر المخضرم، عن رحلاته في الجاهلية إلى بلاد اليمن:

وَصَالِحَةِ الْعَهْدِ زَجَّيْتُهَا لِوَاعِي الْفُؤَادِ حَفِيظ الأَذُنْ
بِبَابِ الْمَقَاوِلِ مِنْ حِمْيَرٍ تُشَدَّدُ أَعْضَادُهُ بِاللَّبَنْ[4]

ومن الأدلة القوية على ذلك، أن ملوك حمير أرسلوا كتاباً إلى الرسول ﷺ معلنين فيه إسلامهم، يحمله رؤساء منهم، ولم يذكر أحد أنه لم يتم التفاهم بينهم، بل كتب لهم رسول الله ﷺ[5].

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٢) الحميري، ملوك حمير...، ص ص١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٤) ديوانه، ص٢٩٩. صالحة العهد: أي قصيدة صالحة العهد. زجيتها: سقتها، أي أنشدتها أو سيرتها. تشدد: تبنى. أعضاده: أي أعضاد الباب، يريد أنه باب بناء كبير.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ ص ص٥٨٨ ـ ٥٨٩، ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

دوافع الاتصال المباشر

الدين والتجارة

ومن هنا، فلا بد أن ظروفاً تاريخية واجتماعية جعلت من اللغة العربية الفصحى، لغة التخاطب الرسمي بين الشمال والجنوب، فمن هذه الظروف:

١ ـ اجتماع العرب في مكة حيث كانوا يحفظون بها أصنامهم، ويحجون إليها للعبادة.

٢ ـ مركز قريش المالي الذي جعل لها السيادة في الأسواق المالية.

٣ ـ ساهمت الأسواق التجارية في تقريب اللهجات[١].

ويذهب لايل إلى أن اللغة العربية الفصحى ابتدأت تسيطر على كل اليمن ما عدا بعض الأجزاء خلال القرن السادس الميلادي[٢]. ولكن الصورة التي قدمها التاريخ والتراث، لاتصال الجنوب بالشمال تجعلنا نذهب أبعد من ذلك، بحيث يمكن للمرء افتراض وجود لغة يمنية تُستعمل في الكتابة، كما تثبت ذلك النقوش، ويقوم بها ناس مختصون، حافظوا على الكتابة بالمسند، كما احتفظوا بلغتهم الحميرية، وذلك إلى جانب استعمال اللغة العربية «الفصحى» في المحادثات الرسمية، وقول الشعر على غرار أهل الشمال. هذا على مستوى الطبقات العليا من المجتمع، الحاكمة خاصة، أما الشعب، فإن اللغة العربية الفصحى أخذت طريقها إليه في زمن مبكر بحيث حلت محل اللغة الحميرية، لا سيما في المناطق الجنوبية مثل نجران؛ ومن

---

(١) علوان، الفصحية لهجة قريش، آداب الرافدين، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م، ع٨، ص ص ٤٩٠ ـ ٤٩٢.

(٢) *Lyall, Translation of Ancient Arabic Poetry, P. xvi.*

أشهر القبائل اليمنية: قبيلتا مذحج، ومراد. كما دخلت اللغة العربية «الفصحى» أيضاً حضرموت، ومن أشهر قبائلها قبيلة كندة.

الهجرات المتعاكسة

ولعلنا نفترض أن انهيار سد مأرب كان بداية اتصال مباشر باللغة العربية الفصحى، ثم انتقال مجموعات قبلية يمنية إلى حالة التبدي، حتى ليقول امرؤ القيس، كاشفاً عن تلك الحالة، حين سمّى بعض الجماعات اليمانية أعراباً:

وَيَغْزُو بِأَعْرَابِ اليَمَانِينَ كُلِّهِمْ لَهُ أَمْرُهُمْ حَتَّى يَحُلَّ المُشَقَّرَا[1]

ويقول الأعشى عن اشتراك القبائل البدوية إلى جانب الفرس وحمير، فيما وصف بتحرير اليمن:

قَدْ عَلِمَتْ فَارِسٌ وَحِمْيَرُ وَالـ أَعْرَابُ بِالدَّسْتِ أَيَّهُمْ نَزَلاَ[2]

أما عن تبدي بعض حمير، وهجرة مجموعات منها مواطنَها إلى مواطن أخرى في اتجاه الشمال، فيقول ابن مقبل:

وَمَالِيَ لاَ أَبْكِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا وَقَدْ حَلَّهَا رُوَّادُ عَكٍّ وَحِمْيَرَا[3]

وإضافة إلى ذلك، فإن مجموعات قبلية شمالية كانت تهاجر باتجاه الجنوب، فتقيم فيه، يقول المرقش الأكبر:

إِنْ تَكُونِي تَرَكْتِ رَبْعَكِ بِالشَّأْ مِ وَجَاوَرْتِ حِمْيَراً وَمُرَادَا[4]

---

(١) ديوانه، ص٢٩٩. المشقر: حصن بهَجَر.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، جـ١، ص٥٥١. الدست: بالفارسية، الدشت، أي الصحراء.

(٣) ديوانه، ص١٤١. الرواد: جمع رائد، وهو الذي يُرْسَل يتقدم القوم في طلب الكلأ ومساقط الغيث.

(٤) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص٨٨٧.

فَاسْتَبْدَلَتْ بَعْدَنَا دَاراً يَمَانِيَةً تَرْعَى الخَرِيفَ فَأَدْنَى دَارِهَا ظَلِمُ[1]

والذي لا شك فيه أن التمزق والتشتت، كانا يسودان الوضع السياسي لليمن نفسها، خلال القرن السادس الميلادي، مما أدى إلى ظهور حكام شبه مستقلين، أو مستقلين، ممن يطلق عليهم لقب «المقاول» أو «الأذواء»، ولقد كان هذا من أهم العوامل التي أدت إلى سيادة اللغة العربية الفصحى، وإحلالها محل اللغة السابقة عليها. وقد وردت في النقوش اليمنية عبارة: «أعراب ملك سبأ وكندة ومذحج»[2].

ويكفي لبيان شدة الاتصال واستمراره بين عرب الشمال وعرب الجنوب، قوله تعالى في سورة «قريش»، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾... وما في معنى الإيلاف من ألفة وتقارب ومحبة وتفاهم أي إن القوافل كانت تمر بها. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ [سبأ: ١٥، ١٨]. وهذا يعني أن سلطة سبأ كانت تمتد عبر طرق التجارة والقوافل من اليمن حتى فلسطين، وكانت لهم في هذه الطرق محميات يتمركزون فيها، مما سهل الاتصال والتخاطب، وأدى إلى الاندماج والتواصل. أما الأمر الآخر، فإن الروابط الدينية بين الجنوب والشمال ظلت قوية شديدة التماسك، فكان اليمانيون أعمق في حال التدين الوثني من عرب الصحراء في شرق الجزيرة ووسطها، وظل حجهم إلى مكة مستمراً لم ينقطع[3].

---

(١) شرح شعره، ص١١٩.

(٢) عناني، تاريخ حضارة اليمن، ص٣٣٩. وانظر النقش رقم ٦١، ونقش سد مأرب، ص٣٦٩.

(٣) انظر توضيح ذلك في كتاب: «الدم المقدس عند العرب».

وهذا يعني أن سلطة سبأ كانت تمتد عبر طرق التجارة والقوافل من اليمن حتى فلسطين، وكانت لهم في هذه الطرق محميات يتمركزون فيها، مما سهل الاتصال والتخاطب، وأدى إلى الاندماج والتواصل.

ولنا خير شاهد على هذا الاتصال المباشر، في القبائل العربية اليمنية التي هاجرت منذ زمن من اليمن، واستقرت في مناطق جديدة ذات احتكاك باللغة العربية الفصحى، ومن أشهر هذه القبائل كلب، التي كانت تسكن بادية الشام، ثم الأوس والخزرج اللتان كانتا تسكنان يثرب (المدينة)، وطيّء التي تسكن الجبلين: أجا وسلمى (حائل حالياً).

ومن هنا وجدنا عدي بن الرقاع (ت١٠٢هـ) يعدد هذه القبائل اليمنية مضيفاً إليها حمير وجذام، فيقول:

وَمَا قُضَاعَةُ عَنْ نَصْرِي بِنَابِيَةٍ إِذَا تَسَامَتْ قُرُومُ النَّاسِ فِي لُبَدِ
إِخْوَانُنَا حِمْيَرٌ تَبْنِي الثَّمامَ لَنَا والْحَمْدُ لاَ يُبْتَنَى إِلاَّ عَلَى عَمَدِ
جُذَامُ إِخْوَانُنَا الأَدْنَونَ قَدْ عَلِمُوا وَمَا أَخُوهُمْ بِمُضْطَرِ وَلاَ وَجِدِ
وَطَيِّءٌ مَعْشَرٌ نَاءٍ وَمَجْمَعُنَا أَقْصَى الدِّيَارِ وَأَزْبَاهُمْ إِلَى أَدَدِ[1]

وهذا لا يعني أن حمير وجذام إنما انتمتا إلى اللغة العربية بعد مجيء الإسلام، وإنما يعني أن أواصر القربى والاتصال كانت سابقة على ذلك، وأنه وُجد هناك حقيقة انفصال بين لغة الخاصة ولغة الشعب، بحيث راح الشعب يتخلى تدريجياً عن لغته الحميرية ويتبنى اللغة العربية «الفصحى»، ويقوى ذلك كلما اشتد الجوار بعرب

---

(١) ديوان شعره، ص١٧٦.
نابية: جافية. القروم: السادة العظام. لبد: تجمّع بعضهم فوق بعض. وجد: غاضب. أزباهم: أقربهم انتماء. أدد: هو أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير.

الشمال، ويتضاءل كلما قوي الانعزال في الجبال وفي المناطق النائية. وعلى حين تخلصت القبائل اليمنية التي استوطنت الشمال حتى من بعض ظواهرها اللهجية، بقيت بعض الظواهر اللهجية والألفاظ الحميرية عند الجماعات اليمنية المجاورة، أو حتى الحاكمة في صنعاء أحياناً.

وربما أمكننا الاستدلال على هذا بقول سيف بن ذي يزن، حين قاتل الحبشة:

قَـــدْ عَـــلِـــمَـــتْ ذاتَ امْـــنِـــطَـــغْ
أَنِّـــي إِذَا امْـــمَـــوتـــخ كَـــنَـــغْ
أَضْـــرِبُـــهُـــم بِـــذَا امْـــقَـــلَـــغْ
لاَ أَتَـــوَقَّـــى بِـــامْـــجَـــزَغْ
اقْـــتَـــرَبُـــوا قِـــرفَ امْـــقِـــمَـــغْ[1]

اللهجة النبطية

وينبغي الإشارة إلى أن اللغة النبطية ـ التي تُعَد لهجة عربية، تعكس قبل القضاء عليها ـ آثاراً إعرابية، ثم فُقدت منها في حدود القرن الأول الميلادي[2].

اللهجات اللحيانية والثمودية والصفوية

وهناك لهجات عربية شمالية شديدة القربى باللغة العربية الفصحى

---

(١) اللسان، «قمع».
أراد: ذات النطع. وإذا الموت كنع. وبذا القلع.
نصب قرف، لأنه أراد ياقرف، أي أنتم كذلك في الوسخ والذل، وذلك لأن قمع الوطب، أبداً وسخ مما يلزق به من اللبن، والقرف من وضر اللبن، والقمع: أن يوضع القمع في فم السقاء، ثم يملأ. القمع: ما التزق بأسفل العنب والتمر ونحوهما.

(٢) *Zweller, The Oral Tradition, P.144.*

احتوت على صيغ مخصوصة لا تختلف كثيراً عن اللغة العربية الفصحى، وهذه اللهجات هي: اللحيانية والثمودية والصفوية. ويبين النقش الصفوي التالي نوع هذه اللهجات:

ل غ س م ب ن ش م ت بن خ أ ل بن ب ن ت
و ح ل ل ه د ر س ن ت ق ن س ه م ل ك أ ل ع و د
و خ ر ص أ ش ي ع ه أ س ر ت ف ه ب ع ل س م ن ر و ح
ل ذ غ ن ظ[1]

وكما يلاحظ فإن هذا النقش يخلو من الحركات الإعرابية المعروفة، في اللغة العربية الفصحى. كما لا يوجد أي أثر لحروف المد الطويلة (الألف ـ الواو ـ الياء)، إذ إن اللهجات الصفوية والثمودية واللحيانية لا تستعمل الإعراب، أو أياً من تلك الحروف[2].

(١) أوليتمان، لهجات عربية شمالية قبل الإسلام، ص ص٢٤٧ ـ ٢٥٣.

(٢) المرجع نفسه.

الفصل الثاني
افتراضات مواطن اللغة العربية

الاتجاه الغربي

نجد

١ ـ اللغة العربية الفصحى هي مزيج من لهجات متحدث بها في نجد والمناطق المجاورة لها، ولكنها ليست واحدة منها[١].

٢ ـ حيث إن نجداً منطقة التقاء بين شرقي الجزيرة وغربيها، فقد أقيمت اللغة العربية الفصحى على إحدى اللهجات النجدية أو عدة لهجات نجدية، قد تكون أكثر قدماً مما عرفناه[٢].

نجد واليمامة

اللغة العربية الفصحى أساسها كلام بدو نجد واليمامة، إلا أن الشعراء أحدثوا فيها تغييراً لاءم المتطلبات الشعرية، وقد تكلمت بقية المناطق لهجات مختلفة، على حين خلت لهجة الحجاز من الإعراب[٣].

النمارة

انتقلت اللغة العربية الفصحى إلى الشرق، من النمارة على حدود

---

(١) *Rabin, Ancient west....., P. 17.*.

(٢) *Ibid, P.3.*.

(٣) *Vollers, Volkssprache and Schriftspache*.

الثقافة النبطية بانتقال الملوك المناذرة من هناك إلى الحيرة[١].

وسط نجد (كندة)

أساس اللغة العربية الفصحى هي لهجات القبائل المَعَدِيَّة، الخاضعة لمملكة كندة، وقد أدى هذا التكوين السياسي إلى إيجاد لغة موحدة فيما بينها[٢].

الحجاز ونجد والجزيرة الفراتية

لم تكن هناك فوارق لهجية كبيرة بين الحجاز ونجد والجزيرة الفراتية، وكانت اللغات العربية الفصحى مزيجاً من هذه اللهجات المختلفة[٣].

الاتجاه العام للدراسات في الغرب

الاتجاه الأول

إثبات استعمال اللغة العربية رسمياً

هناك باحثون غربيون آخرون يرون أن اللغة العربية الفصحى كانت لغة خطاب رسمي، وذلك على النحو التالي:

١ ـ أن اللغة العربية الفصحى لغة قياسية، أي ذات نمط تركيبي نحوي صرفي متميز، وتكونت من خلال تراكمات لهجية مختلفة، خلفتها القوالب الشعرية، وحافظ عليها الشعراء[٤].

٢ ـ أن اللغة العربية الفصحى، هي نتاج اتحاد لهجات مختلفة، وظلت تستعمل لغة أدبية (رسمية) مشتركة[٥].

---

(١) *Caskel, The Bedouinization of Arabia, PP. 34 -46.*.

(٢) نلينو، «كيف نشأت اللغة العربية»، ص٤٧.

(٣) *Rabin, Ancient West... P. 17.*.

(٤) *Lyall, The Mufaddaliyat, PP. xxv, xxvi.*.

(٥) ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص١٦٦. وانظر آراء غير هذه في: *Rabin, Ancient West.* جواد علي، لهجة القرآن الكريم، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج٢، ص ٢٨١، م٣ (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

الاتجاه الثاني

إنكار استخدامها ألبتة

وهناك من ينكر التحدث باللغة العربية الفصحى، على أساس أنه لم يتحدث أحد على الإطلاق باللغة العربية الفصحى كما نعرفها[1].

وكما هو واضح من هذين الاتجاهين، فإن الرأي الغالب، الذي نرجحه هنا، هو أن اللغة العربية الفصحى لغة أدبية، وهي حصيلة اللهجات القبلية المتعددة، التي لم تكن ذات اختلافات فاصلة، وكانت طبيعتها الصحراوية متشابهة ومتقاربة. وإن يكن وسط الجزيرة العربية قد حافظ عليها أكثر وأطول، نتيجة للعزلة الجغرافية، كما ساهم استعمالها في المجالات الرسمية (الشعر والخطابة والكهانة) على استمرارها، حتى عندما فقدت اللهجة طابعها الإعرابي والصرفي.

الاتجاه العربي

الاتجاه القديم

بعض القبائل العربية

قيس ـ تميم ـ أسد ـ قريش ـ ثقيف ـ هذيل ـ خزاعة ـ كنانة ـ غطفان:

حددت المصادر العربية القديمة مناطق انتشار اللغة العربية الفصحى بعد ذلك في التالي:

١ ـ «الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان

---

(١) *Rabin& Ancient West. P. 17*.

وهناك دراسة قدمها حديثاً ونسبره عن اللغة العربية، ضمن كتاب «دراسات قرآنية»، ولكنه كان يدور في حلقة مفرغة، ولم يستطع الإفصاح عن أفكار جديدة، أو طروحات مغايرة. انظر: *Wansbrough, Quranic studies, pp.85-178.*

العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين»[1].

٢ ـ «لم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم... وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم»[2].

٣ ـ «لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدها عن العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم؛ وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم»...[3].

وربما استنتجنا من هذه الأقوال الأخيرة أن من قال من المستشرقين: إن كون منشأ اللغة العربية الفصحى هو وسط الجزيرة العربية، اعتمد في ذلك على ما جاء من تحديد في هذه الأقوال. وكذلك أيضاً أولئك الذين وسعوا الدائرة لتشمل الحجاز، أي أن نقول: إن العلماء العرب القدامى ذهبوا إلى أن نشأة اللغة العربية الفصحى هي وسط الجزيرة العربية والحجاز.

---

(١) السيوطي، المزهر، جـ١، ص٢١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٩٢.

الفصل الثالث

لغة قريش واللغة العربية الفصحى

الإجماع القديم على قريش

مر بنا أن هناك من حدد تمام الفصاحة في لغة قريش، ولذلك كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، ***وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم، تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ***[1]، وقال ابن فارس:

«أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة»[2].

وقال ابن جني (ت٣٩٥هـ): ***«ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء»***[3].

---

(١) السيوطي، المزهر، جـ١، ص١٣٣.

(٢) ابن فارس، الصاحبي، ص٢٣.

(٣) ابن جني: الخصائص، جـ٢، ص١١. العنعنة: إبدال همزة (أن) عينا، فيقولون (عن). التلتلة: كسر أوائل الأفعال المضارعة في مثل: تفعلون، تصنعون، الكشكشة: زيادة الشين بعد كاف ضمير المؤنث في الوقف فقط، مثل انكش، رأيتكش، أعطيتكش. الكسكسة: زيادة السين بعد كاف ضمير المؤنث أيضاً، مثل: مِنكس، عِنكس.

الاعتراض الحديث على الإجماع القديم

يبدو أن هناك شبه إجماع عربي على أن اللغة العربية الفصحى تتمثل في لغة قريش[١]. ولكن هناك من يعترض على هذا، على أساس:

١ ـ من يثبت مقولة من قال أن قريشاً كانت تفعل هذا، وليس لديهم دليل جاهلي مكتوب، ولا أثر يمكن الاستناد إليه[٢]؟

٢ ـ أن النحاة لم يستشهدوا بشعر قريش.

٣ ـ أن المفسرين استعانوا على ما غمض عليهم بلهجات قبائل أخرى[٣].

٤ ـ «أن قريشاً كانت تختلط بوفود القبائل في كل عام حج وكانت منصرفة إلى إثراء مركزها التجاري، كما كان بين ظهرانيها أقوام أجنبية مثل «الأحابيش» بحيث تتحول مكة خلال موسم الحج إلى «بابل» تختلط فيها الألسنة وتتبلبل»[٤].

٥ ـ أن عثمان رضي الله عنه لم يقل لكتّابه أن يكتبوا بلهجة قريش، بل قال: «اجعلوا **المملي** من هذيل، والكاتب من ثقيف». ولو كانت قريش فصيحة لقال اكتبوه بلهجة قريش[٥].

٦ ـ لقد وصف بعض العلماء قبائل بالفصاحة مثل هوازن وهذيل وثقيف وجَرْم، «وليس هؤلاء من قريش»[٦].

---

(١) انظر مناقشة هذه الآراء وعرضها في: السايح، نشأة العربية ومصادرها، ص ص٢٥ ـ ٢٦.
الزبيدي، مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، ص١٠٢.
(٢) السايح، نَشِأة العربية، ص٢٧.
(٣) الزبيدي، مقدمة، ص١٠٢.
(٤) المرجع نفسه، ص ص١٠٣ ـ ١١٠.
(٥) جواد علي، لهجة القرآن الكريم، ص٢٧٨. وانظر بقية نقاشه.
(٦) المرجع نفسه، ص٢٧٩.

٧ ـ لقد نسبت الغمغمة إلى قريش، فكيف تكون فصيحة[١]؟

٨ ـ ما موقفنا من حديث الأحرف السبعة الذي فسره الطبري بـ«**أن القرآن كله عربي، وأنه أنزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها**»[٢].

٩ ـ لم تكن لهجة قريش في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم، بل كثيراً ما كانت لهجة تميم تفوقها[٣].

لغة قريش ولغة الأدب المشتركة

رغم تلك الاعتراضات على «**فصاحة**» قريش وكونها الممثلة للغة العربية، فليس هناك ما يمنع أيضاً أن تستوعب مكة القادمين إليها، وأنهم كانوا يتكيفون مع اللغة الجديدة، بحيث تصبح هي لغتهم الأصلية، ولعل في شاعرية سحيم عبد بني الحسحاس والشعراء السود بصفة عامة دليلاً على ذلك الاستيعاب. ثم إن ذلك المركز التجاري الديني، وربما السياسي، كان يحتم على قريش المحافظة على اللغة الرسمية، إذا افترضنا أن قريشاً إنما كانت تأخذ اللغة عن غيرها على أنها: **لغة تداول رسمي «لغة الأدب النموذجية *Koiné*»**، فإن النظر في حال الشعراء الأميين في الجاهلية، الذين كانوا يقولون الشعر في لغة معربة، وكذلك النظر في حال الخطباء الذين كانوا يتحدثون بها ارتجالاً، وهم في كل ذلك جميعاً، يتأملون في حركاتها، متصورين مواضعاتها في الرفع والنصب والجر وغيرها، يسمح لنا بأن نفترض أيضاً: أن أبناء قريش، كانوا يتحدثون بها، كما يتحدث بها أخوتهم في الصحراء، ولا شك أنه حدثت ظواهر لهجية لقريش، كما حدثت ظواهر لهجية لتميم مثلاً.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص بن ص٢٧١ـ٢٧٦. السايح، نشأة العربية. . .، ص ص٢٧ـ٢٨.

(٣) الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ص٦٦ ـ ٦٧.

والأمر الآخر، الذي يجب ألا يغرب عن البال، هو أن قريشاً، رغم المزاعم بتحضرها، أو احتلالها مركزاً حضارياً أرقى من سواها، لم تكن إلا قبيلة عربية كغيرها من القبائل الأخرى من حيث التركيب الاجتماعي، ومن حيث نمط الحياة الاجتماعية، فهي قبيلة وثنية، جاهلية، بدوية في كثير من أحوالها[1].

ولا بد أن نتنبّه هنا إلى سوء فهم يقع فيه كثير من الدارسين، فهم يفترضون أن اللغة العربية المتحدث بها هي هذه اللغة التي تحتويها المعجمات اللغوية، أي هذا الكم الهائل من الألفاظ والتراكيب النحوية والصرفية، مدرجين في ذلك مادة الأدب الجاهلي شعره ونثره. لقد كان المفروض أن يكون هناك فصل علمي واضح بين لغة الخطاب ولغة الأدب النموذجية: إن لغة الاستعمال الرسمي، تستجلب تراثاً ضخماً من اللغة، والتعابير، والصيغ، وتستعير كثيراً من الاستعمالات الخاصة من مناطق لغوية، بحيث تبدو في الأخير، كأنها لغة موحدة، مقبولة عند الجميع ممن يستمعون إليها، وتصبح هي نفسها ذات طبيعة خاصة، يرقى إليها من كانت له الموهبة والملكة؛ أما لغة الخطاب والمحادثة اليومية، فهي لا تستعمل إلا عدداً محدوداً من الألفاظ والتراكيب، تتكرر يومياً، وتظل حية عند قائليها؛ تتجدد بتجدد المواقف، ويصبح تصور المرء لها واضحاً جداً، بحيث يدرك الفوارق بين الحالات الإعرابية، أما حينما يُضطر إلى التحدث مع غيره من خارج منطقته اللهجية، فهو يلجأ إلى ثقافته المشتركة وخبرته اللغوية. ويفسر لنا هذا ما هو معروف بـ «**لغات العرب**» وقد أشار رابين إلى هذه العلاقة بين اللغة المحكية ولغة الأدب، فقال:

---

(١) الشريف، قريش قبيلة العرب قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب والتربية ص ص١٠١ ـ ١٣٢.

«لعل هناك شيئاً من الحقيقة في الزعم بتفوق لغة قريش، وأنها تضم أفضل ما في اللهجات الأخرى، وذلك يعود إلى (اللهجة) المكتوبة، وليس إلى لغتهم المحكية. ومن ثم فإن مقداراً كبيراً مما أطلق عليه لهجات قبلية أخرى يعود إلى نطق الاستعمال الأدبي لتلك القبيلة أكثر مما يعود إلى اللهجة المحلية»[١].

وهذا ما أكده يوشع بلاو الذي قال: «علينا ألا نبالغ في الاختلافات اللهجية بين هذه اللغات أو بينها وبين اللغة الفصحى، فهي كلها ذات قربى واحدة وصلة مباشرة»[٢].

وعلى هذا الأساس، فإن المقصود بلغة قريش: هي اللغة التي تحاول قريش أن تصطنعها، لأنها لغة الأدب والخطاب الرسمي، وقد كان مركز مكة التجاري والديني من الأسباب التي دعت إلى المحافظة على تلك اللغة، رغم التسليم بوجود لهجات حتى داخل قريش نفسها.

ومهما يكن، فقد كان عثمان رضي الله عنه، حريصاً على اللغة العربية المشتركة التي تمثلها خير تمثيل هذيل، فهي قبيلة وسطى بين القبائل البدوية، مثل تميم وأسد وقيس، والقبائل الحجازية المتحضرة، مثل قريش وثقيف؛ وعندما قال عمر رضي الله عنه لعبد الله بن مسعود: «**إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فاقرىء الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل**»[٣] إنما كان يرفض لهجة هذيل، التي تمثل، في بعض ظواهرها، الخروج على هذه اللغة المشتركة. لقد حرَص

---

(١) *Rabin,« The Beginning of Classical Arabic.» Islamica 3 - 4 . 1955 P. 28.*

(٢) *Blau, The Emergence and Linguistic Back - ground of Judaeo - Arabic, P. 2.*

(٣) العسقلاني: فتح الباري جـ٩، ص٢٧.

عثمان على لغة القرآن من حيث الألفاظ، ولا يمثل ذلك استبعاد قريش، فنحن لا نتوقع من الكاتب القرشي إلا أن يتفق مع المُمْلي الهذلي، على لغة مشتركة بينهما. فعندما يملي الهذلي القرآن بلغة فصيحة، يكتبها القرشي، ولكنه عندما يملي ظواهر لهجته الصوتية، فهنا يتدخل الكاتب، وبواقع ممارسته للغة المشتركة، ليكتب حسب اتجاهات هذه اللغة. وهذا هو الواقع في المصحف العثماني الذي نتلوه، فلهجة هذيل من حيث التصريف والمخارج تختلف في كثير من الأحيان عما هو مرسوم في هذا المصحف، ويمثل لهجة هذيل في ذلك قراءة عبد الله بن مسعود من هذيل نفسها[1]، أما الألفاظ فـ«لا ننتظر أن نجد في اللهجة الهذلية كثيراً من الألفاظ التي تختلف في دلالتها اختلافاً كبيراً عن نظائرها من اللهجات العربية»[2].

وليس هذا قاصراً على لهجة هذيل وقريش وحدهما، بل يصدق أيضاً على لهجة تميم وغيرها، حتى ليستنتج غالب فاضل المطلبي:

«قلة الاختلافات النحوية بين اللهجات العربية القديمة، ثم قلة هذه الاختلافات بين اللهجات العربية من جهة، وبين العربية الأدبية من جهة أخرى» ويعلل ذلك قائلاً:

«ولعل هذا راجع إلى كون هذه اللهجات متقاربة فيما بينها وقريبة من العربية الأدبية قرباً يسوغ قلة الاختلافات النحوية فيما بينها». أما من حيث الظواهر الصوتية اللهجية التي تلاحظ عند هذيل وغيرها فيقول: «إن بعض هذه الاختلافات الصوتية النحوية بين اللهجات

---

(١) الطيب، لغة هذيل، انظر قراءة ابن مسعود في الصفحات ٣٣، ٣٤، ٣٨، ٤٠، ٤٥، ٦٠، ١١٣، ١١٤، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢، ١٦٨ ـ ١٦٩، ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٦٥، ٢٩٢، ٣٥٣ وقارنها بقراءة الجمهور في الصفحات نفسها.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٧.

القديمة يرجع إلى ميول صوتية خاصة بهذه اللهجات»[1]. وتكون النتيجة بعد ذلك كله تأكيداً على أن كون القرآن نزل بلغة قريش يُقصد منه هذه اللغة العربية المشتركة التي «لم تكن لهجة قبيلة معينة، وإنما خليط متجانس من أساليب لهجية قديمة»[2].

وعلى كل، فحال القرآن الكريم في اتّباع اللغة العربية المشتركة، حال الشعر بحيث إنه **«لا يمكن الركون إلى الشعر في الدراسات اللهجية، ذلك أن هذا الشعر قد نظم بالعربية الأدبية التي خلت - إلى حد بعيد - مما هو لهجي»**[3].

---

(١) لهجة تميم، ص٢٥٥ - ٢٥٦ وانظر ص٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٨٩.

(٣) المرجع نفسه.

الفصل الرابع

الإعراب

زويتلر واللغة العربية الفصحى

وجه مايكل زويتلر طعناً حاداً لكل القرائن والبراهين التي تشير إلى استعمال الإعراب حتى فترة متأخرة عند بعض القبائل البدوية، معتمداً على فكرة لغة الأدب المتداولة رسمياً، على أساس أن هذه اللغة لم يتحدث بها الرجال، فشأنها شأن لغة هومر[١]، وقد اقتصر استعمالها على أشخاص معينين كالشعراء والكهان، ولم يسمع الناس أحداً يستعملها في فصاحة، وسلامة، وطول نسبي، استعمالاً جيداً تماماً قبل الإسلام إلا هؤلاء[٢].

ولا بد أن نضع في الاعتبار هنا أن زويتلر أقام صلب نظريته عن اللغة العربية الفصحى، على العلاقة بين النظرية الشفوية واللغة: أي إن الشعر القديم روي ونظم شفوياً، ولذلك أصبح هناك احتراف في اكتساب هذا الشعر بهذه اللغة والنظم على أساسه. وكل ذلك يعتمد على فكرة «الصياغية»: أي العبارات، والألفاظ، والتراكيب الجاهزة، التي تعاد صياغتها، أو تكرارها، حسب مواقف الإنشاد والإلقاء (الخطاب مثلاً).

وعلى هذا الأساس، فإن تعليله وجود الحركات الإعرابية

---

(١) *Zwettler, The oral Tradition, P 79 and Passim.*

(٢) *Ibid, P. 160.*

(الطويلة، أي حروف المد الطويلة والحركات القصيرة)، جاء من خضوع هذه الحركات لإيقاع الوزن والقافية. ومن هنا يُخفق حين يزعم قائلاً: «إن بقايا التنوين والحركات الإعرابية العديمة المعنى في الشعر والحكايات البدوية المعاصرة، لا تقوم إلا بملء مواقع وزنية ضيقة ومعينة فقط، وذلك على أساس أنها تقوم بدور كالذي كانت تقوم به الحركات الإعرابية في اللغة الفصحى المعربة في العصر الجاهلي حتى العصر الأموي»[1]، ثم قوله: «إن الحصول على الحركات الإعرابية كان نتيجة الدربة على رواية الشعر الشفوي في مراحل تدريب الشاعر حتى يصبح شاعراً محترفاً»[2]. على حين أن امتلاك القدرة على توظيف الحركات الإعرابية، لا بد أن يتطلب تصوراً لدورها الإعرابي، ولا يمكن أن يأتي هذا التصور من مجرد الدربة والحفظ، مهما بلغت قدرة الراوية على ذلك.

ومن ناحية أخرى، حتى الشعراء الجاهليون لا يمكنهم أن ينظموا شعراً كالذي بين أيدينا، إن لم يتحدثوا في بيئاتهم لغة معربة. فالشعر العربي ليس شعراً خالياً من الإعراب يعتمد المط، والنبر، والإسكان، بل هو شعر مُعرب، ولن يَسْلم الشاعر من الخروج على لغة الأدب الرسمية، ولو حفظ كل الشعر العربي. فالشاعر المحدث عليه أن يتعلم اللغة، والشاعر القديم لا بد أنه تحدث اللغة، أو أدركها.

ثم لماذا نفترض أن الإعراب زال من اللغة العربية المحكية بناء على زواله عند الأنباط أو غيرهم. لقد استبعد النحاة قبائل معروفة في أطراف الجزيرة، وهي قبائل عربية صريحة النسب، عرفنا منها شعراء مشهورين، فمِنْ تَغْلِبَ، على الأقل، القطاميُّ والأخطل، ولكنهم مع ذلك أشاروا إلى فصاحة القبائل التي أخذوا عنها، وهي قبائل لم يعد

---

(١) *Ibid, P. 148.*

(٢) وانظر *Ibid, P. 156. PP. 145, 147.*

للإعراب وجود عندها منذ القرن الثاني الهجري فصاعداً. أي إن الوضع المفترض لوضع الأنباط قد حصل لهم بفعل الزمن، ولكن، وفي الوقت نفسه، فإن زواله عند الأنباط يدل على بقائه عند تلك القبائل بعد ذلك، وهذه هي النتيجة الطبيعية، لا العكس، كما هو جلي من قول أبي عمرو السابق، وبحساب المدة التي بين قيام مملكة الأنباط، قبل المسيح بخمسة قرون، وزوالها في نهاية القرن الأول الميلادي، يجعلنا نفترض مدة مشابهة يمتد الإعراب فيها حتى مجيء الإسلام، على الأقل.

ما ينبغي توضيحه أن زويتلر، ومن يذهب مذهبه، حين افترضوا اقتصار الحديث باللغة العربية الفصحى على الشعراء، أو حتى الكهان، وظنوا أن القرآن الكريم حينما كان يشير إلى الشعراء خاصة، أن هذا تحدٍ فقط، إنما ألغوا مضمون جميع السور التي استعملت واو الجمع، مثل: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾؛ أي إن القرآن، كان يخاطب العرب الذين كانوا قادرين على التحدث بهذه اللغة، وليس الشعراء فحسب. ولنقل إنه كان أيضاً يتوجه بالخطاب إلى صفوة القوم ووجوههم، وذوي القدرة على امتلاك هذه اللغة، سواء أكانوا شعراء أم غير شعراء.

استعمال اللغة العربية الفصحى لغة حديث وخطاب

رأي ابن خلدون

وفي ضوء ما مر من نقاش سابق، فإن الرأي الراجح حول استعمال اللغة العربية الفصحى، لغة حديث وخطاب، هو رأي ابن خلدون، الذي افترض تعلّم الأجنبي للغة العربية الفصحى مثلما يتعلمها صبي عربي، في وسط يتحدث هذه اللغة، يقول ابن خلدون:

«اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ، لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها، وهي أصل؛ فالصانع الذي يحاول ملكة

الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ، بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر، ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله، ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي، حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم، وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان، حتى تحصل، والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعاني، فهي في الضمائر وأيضاً، فالمعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا يحتاج إلى صناعة، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة، كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني، فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها، لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها»[1].

رأي فلايش

وعلى هذا النحو قال فلايش:

«فهؤلاء البدو عامة، في زمن الفتوحات الإسلامية، كانوا يستعملون (أو يتكلمون) لغة عربية، تضم كل حركات الإعراب، بالإضافة إلى التنوعات وغيرها من المميزات الخاصة بلهجاتهم. فهذا الإعراب ليس من مخلفات العصور السابقة، احتفظ به الشعراء، مع ما

---

(١) ابن خلدون، المقدمة (المكتبة التجارية)، ص٥٧٧.

وانظر، ص٥٦٢..

ورثوه من تقاليد الشعر. ولم يكن نوعاً من اللواحق المصطنعة التي كانوا يلحقونها بالكلمة «بل كان جزءاً لا يتجزأ من اللغة اليومية، وكان البدوي الصغير يتعلمه على نحو طبيعي، وبمجرد تكراره لغة والديه ومحيطه، وذلك مثلما يفعل أي طفل صغير. ولعل هناك مجموعات قد تكون تركت استخدام الإعراب، إلا أن هذا لا يغير الانطباع العام في شيء، ويبدو أن هذا الوضع قد استمر لفترة طويلة نوعاً ما بين قبائل الجزيرة العربية...»[1].

رأي بلاو

ومثل ذلك، ما يراه بلاو في أن اللغة العربية الفصحى كانت ذات طابع تركيبي متميز، أي ذي خاصية إعرابية صرفية قبل الإسلام، أما بعد مجيء الإسلام، واحتكاك العرب بغيرهم، فقد أخذ التأثير الأجنبي يقع عليها، ومع ذلك فإن القبائل البدوية، رغم الإقرار بوجود خلافات لهجية بينها، كانت أقرب إلى اللغة العربية الفصحى، وإن لم تمثلها تمثيلاً تاماً. يقول بلاو:

«لقد كانت لهجات البدو محتفظة بظواهر لم تتغير في أوائل الإسلام، ولقد تأثرت بهجرات القبائل التي أدت إلى اتصال تلك القبائل، بل تمازجها. ومن ثم فقد احتفظت تلك اللهجات ببناء كان - بشكل عام - تركيبياً *Synthetic*، وظلت قريبة من الفصحى....

ورغم ذلك، فقد كانت هناك فوارق بين لهجات البدو واللغة العربية الفصحى... ويبدو أن اللغة العربية الفصحى كانت في هذا الوقت ذات نفوذ، وكان صرفها ونحوها ثابتين... ولعل أولئك الذين راحوا يأخذون عن البدو لم يذهبوا لهم، ليستمعوا للشعراء والرواة،

---

(١) *Fleisch, «Arabe Classique et Arabe Dialectal» Travaux et Jours, P. 42.*

وليتعلموا فن الشعر، بل ليصبحوا متمكنين من استعمال اللغة العربية الفصحى في حياتهم اليومية أيضاً»[1].

رأي كورينته

ولا يختلف كورينته عن فلايش وبلاو، فهو لا ينكر تحدث الأعراب، في فترة التدوين، بلغة عربية فصحى معربة، وهو يحاول أن يرد على من زعم أن هذه الحركات الإعرابية لفقها النحاة من عند أنفسهم، وجمعوها من هنا وهناك. ويستدل على ذلك بصلة اللغة العربية الفصحى باللغات السامية الأخرى، والإقرار بأن قراءة القرآن الكريم كانت ـ منذ بدايتها ـ تستلزم الإعراب والصرف. يقول كورينته:

«لقد وجد النحاة أن لغة البدو العربية مختلفة عن العربية المعاصرة لهم، وهي قريبة من لغة القرآن والشعر. وحيث تتطابق هذه اللغة مع اللغات السامية، التي لم تكن معروفة لديهم، فإنه لم يكن باستطاعتهم قط اختراع نظام الإعراب على أساس كونه لعبة نحوية منطقية، فأدخلوه في النصوص التي نشروها. وإضافة إلى ذلك، فإنهم لم يستنبطوه من مصادر أقدم، فبثوه في مواد حية، لأنه ـ وبغض النظر عن إشاعة كون تلك النصوص قد أدخل فيها الإعراب ـ فإن المصحف العثماني يتضمن الإعراب، منذ روايته الأولى. ويبرهن على ذلك، إلى جانب الجموع والتثنية والفواصل والنظم النحوي، إجماع القراء (رغم وجود شيء من الفوارق بينهم)»[2].

---

(١) *Blau, The Importance of Middle Arabic Dialects, PP. 224 - 225.*

(٢) *Corriente, «From Old Arabic», Journal of Semitic studies PP. 62 - 65.*

رأي محمد صِدّيق العوضي

ويدعم أستاذنا محمد صديق العوضي (رحمه الله تعالى، وجزاه عن العلم خيراً)، وهو أحد المتخصصين في الدراسات اللغوية الفارسية، في محادثة شخصية معه ذلك الرأي بقوله:

«كانت اللغة العربية معربة حقاً، والدليل هو أن الكلمات العربية في الفارسية ـ ولم تدخل الكلمات العربية في الفارسية إلا منذ العهد الإسلامي ـ ظلت محتفظة بصورتها الصرفية بعد دخولها، حين استقبلتها الفارسية من العرب الفصحاء، فلم تتأثر بالتطور اللهجي الذي حدث بعد ذلك، ولذلك، فصرفها غير صرف الألفاظ في اللهجات العامية»[1].

وربما كان رأي فلايش قريباً من هذا إلى حين قال، عن بعض صيغ الأسماء التي تمثل الألفاظ البدوية القديمة المعروفة في الشعر، والتي دونها علماء اللغة على أنها من «الغريب».

«يبدو مستحيلاً ظهور هذه... الطبعة من الأسماء من غير حركات إعراب، من الناحية الصرفية، في اللغة العربية»[2].

رأي ابن جني

وبعد هذا، فإن رأي ابن جني في التحدث باللغة العربية الفصحى، رأي له قيمته الكبرى هنا، فهو قد تحدث عن العرب بشكل عام، وكيف كانوا يرتقون بلهجاتهم الخاصة إلى لهجات غيرهم، بحيث يتفاهمون في أمور حياتهم، فيقول:

«إن العرب، وإن كانوا كثيراً منتشرين، أو خلقاً عظيماً في

---

(١) محمد صديق العوضي، قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود، أجريت الحوار معه في ١٣/ ٧/ ١٤٠٩هـ الساعة ١٢ظهراً.

(٢) انظر هذا الرأي، ومناقشته في: *Zwettler, The Oral..., PP. 137-138.*

أرض الله غير متحجرين، ولا متضاغطين، فإنهم - بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم - يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مُهِم أمره»[1].

ولا بد أن ننبه هنا إلى قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الزمر: ٢٨) و﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الأحقاف: ١٢)، فقد اتخذها بعضهم دليلاً على بعث القرآن الكريم الشعور القومي بين العرب[2]. وما هكذا المعنى، ولم يكن العرب قبيل الإسلام، ولا قبله بمتوحدين، وإنما المقصود بالصفة عربي: اللغة العربية الفصحى التي لا الشعراء، ولا البلغاء، استطاعوا أن يعبروا بها تعبير المستوى القرآني بقليل أو كثير.

إذن،

فهذه الآراء مجتمعة توصلنا إلى حقيقتين هامتين هما:

الأولى

أن اكتساب اللغة العربية الفصحى جاء عن طريق الممارسة اليومية العملية في مجتمع لم يتأثر كثيراً بالتيارات الأجنبية عن طريق الاحتكاك المباشر. وإن كانت هذه العزلة قد أدت إلى وجود فوارق لهجية بين لغات القبائل في وسط الجزيرة العربية والحجاز.

الثانية

أن القبائل العربية التي رحلت خارج مواطنها في أثناء الفتوحات حملت معها تلك الظواهر، ثم أخذت شيئاً فشيئاً في التخلي عنها.

---

(١) ابن جني، الخصائص، جـ٢، ص٨٦.

(٢) *Zwettler, The Oral..., M 161 - 167.*

الفصل الخامس

الإقواء

إفادات حول الإقواء

ذكر القدماء الإقواء، وعدوه عيباً من عيوب الشعر، ولاحظوه في أشعار الشعراء الجاهليين والإسلاميين، فسجلوه، فقال ابن سلام:

«الإقواء... هو في شعر الأعراب كثير، وهو فيمن دون الفحول من الشعراء أكثر... والبدوي لا يأبَه له»[1].

وقال الأصمعي: ***«أقوت فحول الشعراء»***[2].

وقال القاضي الجرجاني:

«اللحن لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين، ولا سلم منه شاعر من شعراء الإسلاميين، وقد جاء في أشعار المتقدمين ما علمتم من الأقواء وغير الإقواء، مما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة... جاء مثله كثيراً في أشعار القدماء والأعراب والفصحاء»[3].

وقال أبو هلال العسكري:

«... الإقواء... وإن جاء في جميع أشعار المتقدمين وأكثر أشعار المحدثين»[4].

---

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص٥٨.

(٢) ابن الأنباري شرح المفضليات، ص٢٣٣.

(٣) الجرجاني، الوساطة، ص٢٩.

(٤) العسكري، كتاب الصناعتين، ص١٨٢.

وقال المعري عن بيت فيه إقواء لأبي الهندي:

«فإن كان أبو الهندي ممن كتب وعرف حروف المعجم، فقد أساء في الإقواء»[1].

وقال جندل الطهوي:

لَـمْ أُقـوِ فِـيـهِـنَّ وَلَـمْ أُسَـائِـدِ[2]

وليس لنا أن نستدل من ذلك، كما استدل زويتلر، على أن هذا برهان على عدم التمسك بالإعراب والمعرفة به، حتى إنه ليستشهد على هذا بما جاء في النقائض: تعليقاً على البيت:

جَـانِـيـكَ مَـنْ يَـجْـنِـي عَـلَـيـكَ وَقَـدْ تُـغْـدِي الـصَّـحَـاحَ مُـبَـارِكَ الـجُـرْبُ

وهو أحد أبيات سبعة:

«قال أبو عبيدة: أنشدني داود، أحد بني ذؤيب وغيره: (الصحاح مبارك الجرب)، فرفعوا مبارك، وجرّوا الجرب، وذلك إقواء. وقال أبو الخطاب: إن عامة أهل البدو ليست تفهم ما يريد الشاعر، ولا يحسنون التفسير، وإنما أتى إقواء هذا من قلة الذين رووه، وإنما عني الشاعر: وقد يعدي الأجرب الصحيح مبركاً؛ فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً، لم يحسنوا تلخيصه، ووجدوا مبارك لا ينصرف، فأظلم المعنى عليهم، وإنما أرادوا: وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب»[3].

فظاهر كل هذه الإفادات، هو أن الإقواء مرتبط بالشعر، وأن الشعراء الفحول هم المتمكنون من الشعر، ولذلك فهو في شعرهم قليل. وهذه حقيقة بارزة في كل الشعر القديم الذي بين أيدينا. أما

---

(١) المعري، رسالة الغفران، ص ص١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص١٣٩.

(٣) أبو عبيدة، النقائض، جـ٢، ص١٠٢٦.

الشعراء دون ذلك، فإنهم ـ لعدم ممارستهم الشعر ـ يضطرون إلى ارتكاب هذه الضرورة. وهذا يعني أن الشعراء الفحول، ومن هم دونهم، يدركون المواقع الإعرابية، فالشاعر الفحل يتحاشى الإقواء، وإن لم يسلم منه؛ أما غيره، فربما وقع فيه. وهكذا بالنسبة للأعراب، فالأعرابي حين يقول الشعر عفو الخاطر، لا يستطيع أن يفكر كثيراً في القافية، ولهذا قد يقع في الإقواء؛ لأن التزام حركة روي واحدة لا يَحيد عنها، تضطره إلى الخروج إلى حركة أخرى مغايرة، وهذا ما قد يقع فيه الشاعر الفحل كذلك، مثلما ذكر ابن الأنباري. أما ما أورده الأخفش فإنه لا يتنافى مع وجود الإعراب، وليس دليلاً على أن حديث الأعراب اليومي يخلو من الإعراب، لأن الشاهد نفسه يقول: ***«إن عامة أهل البدو ليست تفهم ما يريد الشاعر، ولا يحسنون التفسير. . وإنما عنى الشاعر: وقد يعدي الأجرب الصحيح مبركاً، فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً، لم يحسنوا تلخيصه، ووجدوا مبارك لا ينصرف، فأظلم المعنى عليهم»***. فالشاهد يدل على معرفة البدو بالإعراب **«مقدماً ومؤخراً»** و **«لا ينصرف»**، وهذه مصطلحات إعرابية، ولكن تركيب الشعر غير تركيب لغة الحديث العادي، وهذا البيت يتحكم فيه **«ما يريد الشاعر و. . . التفسير»**، أي: إن المعنى هو الذي يوجه الإعراب هنا، لطبيعة تركيب البيت، وبهذا فلا حجة فيه على الجهل بالإعراب وعدم استخدامه.

شهادة ابن فارس حول تداول الإعراب

ولعل في قول ابن فارس (ت٣٩٥هـ) الآتي ـ الذي جاء به حجة على التعليم، والواقع أنه حجة على استعمال اللغة العربية الفصحى في لغة الأدب دون سابق معرفة بالتعليم ـ ما يقنعنا بتمكن الشاعر الفحل من الإعراب، حتى عندما لا يُضطر إلى التمسك بحركة واحدة مطردة في كل القصيدة، يقول:

«والدليل ـ على أن القوم قد تداولوا الإعراب، أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها:

شَاقَتْكَ أَظْعَانٌ لِلَيْنَى لَدَى دُونَ نَاظِرَةٍ بَوَاكِرْ

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة. ولولا علم الحطيئة بذلك، لأشبه أن يختلف إعرابها، لأن تساويها في حركة واحدة ـ اتفاقاً من غير قصد ـ لا يكاد يكون»[1]. ولا شك أن «**علم الحطيئة بذلك**»، إنما هو علم تلقائي طبيعي، وليس علم المدارسة والتلقين المنظَّم أو المكتوب. ويؤيد هذا ما رواه ابن فارس نفسه من أن «**القوم قد تداولوا الإعراب**».

فإذا تجاوزنا الإقواء، فإن السؤال الأكثر أهمية والأبلغ دلالة، هو: هل في تركيب القصيدة خلل إعرابي، سواء جاءت من فحل أو ممن هو دون الفحل، أو من أعرابي؟ ألا يحتِّم تركيب القصيدة إعرابها، وبناءها الصرفي؟ وهل قال أحد من القدماء بخلوها من الإعراب؟

اللحن

يحق للمرء بعد ذلك أن يفترض افتراضاً معقولاً إلى حد بعيد، وهو أن الشاعر العربي القديم الذي استطاع أن يقول قصيدة مطولة، إلهاماً أو ارتجالاً، على ذلك المستوى من التحكم في الإيقاع واللغة، إنما كان على قدر كبير من الممارسة اللغوية، كما تتمثل في البناء والتركيب، وإن أهم مظهر من مظاهر هذه اللغة هو استعمال الحركات الإعرابية، والتنظيم الصرفي للألفاظ. وعلى هذا، افتخر النابغة الشيباني (ت١٢٥هـ) بأنه يقول الشعر المُعْرَب، على حين أن آخرين ـ

(١) ابن فارس، الصاحبي، ص ص٨ ـ ١١.

ممن لم يستكمل نضجهم الفني، ولم يؤتوا القدرة على امتلاك ناصية اللغة ـ يلحنون؛ وهو ما يذكرنا بفكرة لحن الشعراء التي اتكأ عليها زويتلر، يقول النابغة الشيباني:

وَيُـعْـرِبُ أَقْـوَامٌ وَيَـلْـحَـنُ مُـعْـشَـرٌ مِرَاراً وَبَعْضُ اللَّحْنِ أَكْثَرُ مِنْ بَعْضِ[1]

وهكذا يقول الآمدي:

«ولو استقصينا هذا البابَ لطال جداً، وإنما أوردنا ههنا منه مثالاً، لتعلموا أن فحولَ الشعراء ـ الذين غلبوا عليه، وافتتحوا معانيه، وصاروا قُدْوة، واتبعهم الشعراء، واحتذَوْا على حَذْوهم، وبَنَوْا على أصولهم ـ ما عُصِمُوا منَ الزلَلِ، ولا سلموا من الغلط.

هذا في المعاني التي هي المَقْصِدُ والمرمىٰ والغرض، فأما ما بَوَّبه النحويون من عيوب الشعر في الإقواء والإكفاء والسِّناد، وغير ذلك مما هو عَيْبٌ في اللفظ دون المعنى، فليست بنا حاجةٌ إلى ذكره؛ لكثرته وشهرته. وكذلك ما أخذَتْه الرُّوَاة على المحدَثين المتأخرين ـ من الغلط والخطأ واللحن ـ أشهرُ أيضاً من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندلَّ على ذلك»[2].

---

(١) ديوانه، ص١١٨.

(٢) الآمدي، الموازنة، ص٤٧.

الفصل السادس
اللغة المحكية «المعربة»

المستوى الشعبي

يؤدي ما مَرَّ من نقاش إلى نتيجة تقول: إن اللغة العربية الفصحى كانت مستعملة على النطاق الرسمي والشعبي، ولكنها ذات مستويين: الأول:

المستوى الشعبي، وهو يشكل لغة القبيلة أو الجماعة، وهي محدودة التعبيرات والتركيبات.

الثاني: لغة الأدب النموذجية، لغة الشعر والخطابة والحديث الرسمي، وهي لغة تجمع التراث عامة، ويستفيد منه المهتمون به.

ثم هنالك لهجات شعبية خارجة عن أي من المستويين، وقد فَقدت الأعراب، وهي تضطر إلى أن تصطنعه عند توجهها لأي من المستويين.

أما المحافظة على أي من المستويين السابقين بالظواهر الإعرابية، أي: الحركات، فلأن ذلك نظام متوارث، والمتكلم لا يفكر في نظام اللغة. إذن، فبقاء الحركات يعود إلى اعتباره نظاماً لغوياً متوارثاً، أو تقليدياً لغوياً متوارثاً.

تأكيدات على استعمال الإعراب شعبياً

ويجدر بنا بعدئذ أن نختتم هذا الباب بشهادات موثوقة من رجال، إما أنهم كانوا ممن يتحدثون هذه اللغة العربية الفصحى،

ويقولون بها الشعر، وإما من رجال عاصروا من يتحدث بها، واستمعوا لهم وهم يتحدثون بها. كقول الفرزدق الذي ألح عليه ابن أبي إسحاق النحوي (ت١١٧هـ) من أجل ملاحظة الإعراب في كلامه:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجَوْتُهُ وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا[1]

ويقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، في نص لا يدع مجالاً للشك في أنه يروي ما يسمعه، وينقل عمن يعايشهم:

«وليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء...»[2].

ويقول:

«ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبَلَدِيِّين، خرجت من تلك الحكاية...»[3].

ويقول:

«أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير، والتعقيب، والتشديق، والتمطيط، والجهورة، والتفخيم. وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق..»[4].

وأخيراً، فإننا نختتم هذا بما أورده ابن جني (ت٣٩٢هـ)، من ملاحظات على الأعراب في عصره، حيث يقول:

---

(١) الجرجاني، الوساطة، ص٩.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص١٤٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٦.

«إنهم أشد استنكاراً لزيغ الإعراب، منهم لخلاف اللغة؛ لأن بعضهم قد يُنطق بحضرته بكثير من اللغات، فلا ينكرها. إلا أن أهل الجفاء وقوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم زَيْغَ الإعراب»[1].

كما يقول ـ في معنى يعود بنا إلى فكرة تعلم الطفل اللغة من محيطه:

«وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول: إنه يحكي كلام أبيه وسلفه؛ يتوارثونه آخر عن أول، وتابع من متتبع. وليس كذلك أهل الحضر، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة. غير أن كلام أهل الحضر مصان لكلام فصحاء العرب في حروفهم، وتأليفهم، إلا أنهم أخلّوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح»[2].

ماهية الإعراب

وإذا كان كلام الجاحظ يحمل التفسير السابق بوجهيه، أي: إن هناك من يتحدث لهجة من لهجات اللغة العربية الفصحى، دون تقعير، وتعقيب، وتشديق... إلخ، وأن اللحن إنما بدأ يتسرب إلى العرب باحتكاكهم بأهل المدينة: ***«الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق»***، ويتضمن كلام الجاحظ هذا الميل إلى تسكين أواخر الكلمات، تخلصاً من الإعراب، والخطأ في بنية الكلمة، فإن النص التالي يشير إلى فكرة اللغة الشعبية، إشارة تبيِّن أن الإعراب كان في لغة الحديث اليومي أمراً، ليس بالصرامة التي نعرفها في المدَوَّنات، بل كان يتحلل بطرق مختلفة من تلك القيود الإعرابية. يقول أبو العيناء (ت٢٨٢هـ):

---

(١) ابن جني، الخصائص، جـ٢، ص ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.

«ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتاً من الشعر، فاختلس الإعراب، ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدَّرْج. وحدثني عيسى بن عمر أنّ ابن أبي إسحاق، قال: العرب ترفرف على الإعراب، ولا تتفيهق فيه. وسمعت يونس يقول: العرب تشام الإعراب ولا تحققه.

وسمعت الخشخاش بن الحباب، يقول: العرب تقع بالإعراب، وكأنها لم ترد.

وسمعت أبا الخطاب يقول: إعراب العرب الخطف، والحذف، قال: فتعجب كل من حضر منه»[1].

وهذه كلها مصطلحات تدور حول السرعة والخفة، وتوميء إلى الإسكان.

ونختتم هذا الموضوع بقول عمار الكلبي، في استعمال الفصحى سليقة، دون تعلُّم نحوها وصرفها، على عكس الذين يتعلمونها تعلماً:

مَاذَا لَقِينَا مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ ... قِيَاسِ نَحْوِهِمُ هَذَا الَّذِي ابْتَدَعُوا
إِنْ قُلْتُ قَافِيَةً بِكْراً يَلُونُ بِهَا ... بَيْتٌ خِلاَفَ الَّذِي قَاسُوهُ أَوْ ذَرَعُوا
قَالُوا لَحَنْتَ وَهَذَا لَيْسَ مُنْتَصِباً ... وَذَاكَ خَفْضٌ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ
وَحَرَّضُوا بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ حَمَقٍ ... وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ وَالْوَجَعُ
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا لِمَنْطِقِهِمْ ... وَبَيْنَ قَوْمٍ عَلَى أَعْرَابِهِمْ طُبِعُوا
مَا كُلُّ قَوْلِيَ مَشْرُوحاً لَكُمْ فَخُذُوا ... مَا تَعْرِفُونَ وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا
لِأَنْ أَرْضِيَ أَرْضٌ لاَ تُشَبُّ بِهَا ... نَارُ المَجُوسِ وَلاَ تُبْنَى بِهَا البِيَعُ[2]

وسوف نجد في الباب الثامن من هذا الكتاب، أن بعض

---

(١) انظر هذا النص في: رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص٦٥.
(٢) ابن جني، الخصائص، جـ١، ص ص٢٩٣ ـ ٢٤٠ وانظر، ص٢٤٢.
وانظر قول البَزْدَخْت في نحوي، القاضي الجرجاني، الوساطة، ص٩.

الشعراء، أشاروا إلى تنقيحهم الشعر، ومن ضمن عيوبه الإقواء، وهذا أمر يؤكد أن أولئك الشعراء كانوا يتحدثون لغة شعبية «فصحى»؛ وكانوا حين يقولون الشعر، ثم يعاودون النظر فيه، إنما يرقون به إلى مستوى لغة الأدب الرسمية، فيتخلصون بذلك من الانحرافات والخروجات عن ذلك المستوى.